الفصل الرابع

شعر المتكلمين

١

كان ظهور المرجئة صدى للاختلاف الشديد بين عقائد الشيعة وعقائد الخوارج ، وتطرف كل من الفريقين فى آرائه وأفكاره ، وقد اعتمدت هذه الفرقة فى نشأتها على رأى محايد فى الحكم على المتنازعين من المسلمين بعد مقتل عثمان من حيث الكفر والإيمان .

وكان أبرز ما تتصف به أفكارها لزوم جانب القصد والاعتدال والتوسط بين الجانبين المتطرفين فى وضع مفاهيم جديدة للحكم على عقيدة المسلم بعيداً عن الصرامة والعنف اللذين اتصفت بهما عقيدة كل من الخوارج الوعيدية والشيعة الغالية .

وقد صح لدينا خلافاً للبعض أن المرجئة ليست فرقة دينية خالصة كما زعموا وإنما هى فرقة سياسية محايدة كما تدل على ذلك ظروف نشأتها إذ كان رجالها الأولون من الغزاة الذين عادوا من الثغور إثر مقتل عثمان وتوقف حركة الفتح فهالهم ما وجدوا عليه المسلمين من اختلاف وتنازع فى أمر على وعثمان ، فآثروا الحيدة ولاذوا بالعزلة وأعلنوا أنهم لا يتبرءون من أحدهما ، ولا يشهدون على أيهما ، وإنما يرجئون أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما[1] .

وكان فريق من صحابة الصدر الأول قد استنكفوا الانزلاق فى هذا النزاع من مثل أبى بكرة الذى كان يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثا يتوقع فيه أن تحدث فتنة يكون القاعد فيها خيرا من الماشى ، والماشى فيها خيرا من

---

(١) ابن عساكر ج ٢٠ ص ٥٧٧ .

الساعى ، ودعا من يشهد هذه الفتنة إلى أن يجهد فى تجنبها ، وأن يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر[١] .

وبتأثير هذا الجو تجنبت طائفة من كبار الصحابة الفتنة التى تلت مقتل عثمان فلم يكونوا مع علىّ ولا مع خصومه ، وكان أشهرهم عبد الله بن عمر وسعد ابن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة الأنصارى وأسامة بن زيد وقيس بن أبى حازم[٢]

وقد ترك عبد الله بن عمر أمر هذا النزاع مع كثرة ميل أهل الشام إليه ، ولم يقاتل فى شىء من الفتن ، ولم يشهد مع علىّ شيئا من حروبه ، وكذلك فعل محمد ابن مسلمة الذى اتخذ سيفا من خشب ، وكان يقول « بذلك أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٣] .

ولزم سعد بن أبى وقاص بيته ولم يستجب لمحاولات ابنه وابن أخيه اللذين ألحّا عليه فى أن يدعو لنفسه ، ولزم السلامة حتى طمع فيه معاوية ، كما طمع فى ابن عمر وابن مسلمة ، وكتب إليهم يدعوهم إلى التكفير عن خذلانهم عثمان بإعانته على الطلب بدمه فرد عليه سعد بأبيات يستنكر فيها أن يجيبه إلى ما أباه على علىّ بن أبى طالب يقول فيها :

معاوىّ داؤك الداء العياء ... وليس لما تجىء به دواء
أيدعونى أبو حسن علىّ ... فلم أردد عليه ما يشاء
وقلت له أعطنى سيفا قصيرا ... تميز به العداوة والولاء
أتطمع فى الذى أعيا علىّا ... على ما قد طمعت به العفاء
ليوم منه خير منك حيّا ... وميتا أنت للمرء الفداء[٤]

وعلى الرغم من أن هذه الأبيات تبدو من انتحال الشيعة لما فيها من تقديم علىّ على معاوية ، فإن الأبيات ليست إلا صدى للموقف الذى وقفه سعد بن

---

(١) صحيح مسلم جـ ٨ ص ١٦٩
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢
(٣) أسد الغابة جـ ٤ ص ٣٣٠ .
(٤) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٩٠ .

أبى وقاص من الفريقين المتنازعين ، ولتحرجه عن الإنضمام إلى أحدهما ، وهو لا يملك سيفاً يميز به المصيب والمخطئ أو الجدير بولايته والحقيق بعدواته .

وتذكر الروايات أن أهل البصرة كانوا قبل الجمل فرقا ، فرقة مع طلحة ابن الزبير ، وفرقة مع علىّ وفرقة أخرى لا ترى القتال مع أحد من الفريقين وكان القتال فى ساحة الأزد ، فدعا كعب بن سور بصبرة بن شيمان رأس الأزد ونصحه بألا يشهد الفريقين وأن يعتزل بقومه[١] .

كما يذكر أبو الفرج أن خريما والد الشاعر أيمن كان ممن اعتزلوا حرب الجمل وصفين وما بعدهما من الأحداث فلم يحضرها[٢] .

وهؤلاء جميعا اشتبهت عليهم القضايا فتحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا من الصواب[٣] ، فوقفوا موقف الحيدة من الصراع العنيف بين علىّ ومعاوية فى صفين وبين علىّ والخارجين عليه فلم يعينوه ، ولم يطالبوه بدم عثمان ولم يعينوا الخارجين عليه أيضا ، وإنما سالموهم جميعا أو تجنبوهم جميعا لأنهم لم يكونوا من رأى الشيعة الغالية فى تكفير أبى بكر وعمر وعثمان وبنى أمية بحجة أنهم مغتصبون لحق آل البيت فى الخلافة كما لم يكونوا أيضا من رأى الخوارج فى تكفير على وعثمان ومعاوية وغيرهم من أهل صفين وغير أهل صفين من عامة المسلمين الذين لا يجاهرون بعدواتهم للجماعة الضالة ولا يهاجرون عنها ، وأيضا فإن هؤلاء لم يكونوا من رأى بنى أمية فى قتالهم للخوارج وللشيعة ، وقد عرف هؤلاء الذين تحرجوا عن الإشتراك فى الفتنة وأحداثها بالمرجئة الأولى ، وقد جاء فى طبقات ابن سعد أن محارب بن دثار الذهلى قاضى الكوفة فى ولاية خالد القسرى وخلافة هشام بن عبد الملك كان من المرجئة الأولى الذين يرجون عليّا وعثمان ، ولا يشهدون بإيمان وكفر[٤] .

وكذلك كان بريدة الأسلمى فقد عرّض رجل بعلى وعثمان وطلحة والزبير

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٧٢ .
(٢) الأغانى جـ ٢١ ص ٥ .
(٣) شرح النووى على صحيح مسلم جـ ١٨ ص ١١ .
(٤) ابن سعد جـ ٦ ص ٢١٤ .

لإستخراج رأيه فقال له : «قوم سبقت لهم من الله سوابق فإن يشأ أن يغفر لهم ما سبق لهم فعل ، وإن يشأ يعذبهم بما أحدثوا فعل ، حسابهم على الله »[١]

وهذه الحيدة هى التى تقوم على أساسها عقيدة المرجئة وقد أرجعت تسميتهم بهذا الاسم إلى أنهم لزموا الحياد فلم يقضوا على شيعى أو خارجى أو أموى بخطأ وإنما أرجأوا أمرهم إلى الله أى أخروه أو أنهم لم يقضوا على مرتكب الكبيرة بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار وإنما منحوه الرجاء فى المغفرة بتأخيرهم الحكم عليه إلى يوم القيامة ما داموا يذهبون إلى أنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فكأنهم بهذا يرجون لكل مسلم مغفرة من الله[٢] أو لأنهم بقولهم إن الإيمان تصديق فحسب أو تصديق بالقلب واللسان ولا شأن له بالأعمال قدّموا القول وأرجأوا العمل أى أخروه كأن المسلمين لو تركوا العبادات لنجوا بإيمانهم أو لأنهم يعتقدون أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصى .

فاسمهم مشتق من الإرجاء على هذه المعانى التى ذكرنا والتى تدور جميعا حول الحكم على عقيدة المسلم الإيمانية إما بتأخيره أو بإعطائه الرجاء فى المغفرة أو بإرجاء العمل أى بتأخيره على الإيمان . ولهذا كنا لا نرى تناقضا بين هذه المعانى جميعها لأنهانابعة عن التحرج عن الانغماس فى التحيز إلى فريق من المتنازعين على فريق آخر أو الحكم على أحدهما بالخطأ أو بالصواب دون غيره .

وتتمثل هذه المعانى فى شعرهم بوضوح وليس أدل على ذلك من قول شاعرهم ثابت قطنة :

نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم ... والكافرون استووا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا ... م الناس شركا إذا ماوحدوا الصمدا
كل الخوارج مخطٍ فى مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أمّا على وعثمان فإنهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا

(١) ابن سعد جـ ٤ ق ١ ص ١٧٩ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢٢ ، نقد العلم والعلماء ص ١٠٢ .

وكان بينهما شغب وقد شهدا شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزى على وعثمان بسعيهما ولست أدرى بحق آية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به وكل عبد سيلقى الله منفردا[١]

فهم لا رأى لهم فى الأمور المشتبهة ، ولذا فهم لا يكفرون أحدا من المسلمين على نحو ما يصنع الخوارج بتكفيرهم عامة المسلمين . وبزعمهم أن دارهم دار حرب وبتشددهم بإكفار القعد منهم وتجاوزهم ذلك إلى قتل كل من يروى حديثا يحذر من الفتنة ، وقيام استعراضهم الناس على امتحانهم فى موقفهم من عثمان وعلى[٢] ثم هم يرجئون الحكم على مرتكب الكبيرة أى يؤخرونه ويجعلونه لله ، ويرجئون العمل عن الإيمان إذ أن الإيمان عندهم ألا يشرك الناس بالله الواحد الصمد وهو فى غنى عن العمل خلافا للخوارج الذين يرونهما شيئا واحدا لا وزن لأحدهما بدون الآخر ، وعلى هذا فإن الخوارج مخطئون فى هذا التصور ، وعثمان وعلى وغيرهما مؤمنون ولا يستطيعون الحكم على أحدهم بخطأ ، وكذلك جميع المسلمين لا يصح التعرض لهم بحكم إذ يكفى أن يكونوا مسلمين ، أما عملهم فذلك موكول إلى ربهم ، ولو لم يصوموا أو يصلوا أو يحجوا فهم مسلمون . ولا يصح أن يطردوا من حظيرة الإسلام فإذا كان بعضهم مخطئا وبعضهم الآخر مصيبا فإنهم ليعجزون بالفعل عن تبيّن من هو المخطئ ومن هو المصيب ولذا فهم يتركون أمرهم جميعا إلى الله ويرجئون أمرهم جميعا إلى الذى يعرف سرائر الناس ويحاسبهم عليها .

وهكذا يبدو أن الأفكار لم تكن تخدم أحدا من المهتمين بأمر السياسة بقدر ما كانت تخدم الأمويين ، فالمرجئة لا يقفون منهم موقف الفرق الأخرى فلا يكفرونهم ولا يعارضونهم كما أنهم لا يجاهرون بمناصرتهم ، وإنما يتركونهم وشأنهم ، وفى هذا تأييد سلبى لهم ولكنه تأييد وليس معارضة على أى حال .

وقد كانت آراء المرجئة لهذا مثارا لمناظرات وجدل كثير فى العراق وبخاصة

---

(١) الأغانى / جـ ١٣ ص ٥٠ .
(٢) ابن سعد / جـ ٥ ص ١٨٢ .

فى الكوفة دار الشيعة إذ كان فيها أيضا كثير من المرجئة الذين أخذوا يتحاورون ويتناقشون يدل على ذلك ما رواه ابن سعد من أن رجلا كان يأتى النخعى فيتعلم منه فسمع قوما يذكرون أمر علىّ وعثمان فقال أنا أتعلم من هذا الرجل وأرى الناس مختلفين فى أمر علىّ وعثمان فسأل إبراهيم النخعى عن ذلك فقال : ما أنا بسبئ ولا مرجئ (١) .

وهذه الرواية تضع المرجئة على نقيض الشيعة تماما أو على وجه الدقة على نقيض غلاتها حتى لنرى بعض مؤرخى العقائد يرجعون تسمية المرجئة إلى أنهم أرجأوا عليًّا أى أخروه عن الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة (٢) .

وقد حدث هذا منطقيًّا نتيجة لسلبية المرجئة وسكوتهم عن تصويبه أو تخطئته ، فما دام لم يتبين لهم صواب عمله أو خطؤه وجب أن يسبقه فى الدرجة من ثبت عملهم بالقطع وهم النبى صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر ثم عمر ويأتى بعد ذلك علىّ وعثمان ومعاوية وكافة المسلمين المرجئين فى الدرجة الرابعة .

وليس شك فى أن هذا يتعارض مع عقيدة الشيعة الغلاة الذين كانوا يكفرون الصديق والفاروق كما يمس ما كانوا يخلعونه على علىّ من مظاهر التقديس وشارات التبجيل ، وليس شك أيضا فى أن موقف المرجئة من بنى أمية وسلبيتهم تجاههم قد أزعج الشيعة المتشددين كما أزعجتهم هذه التسوية التى أدت إليها نظرية الإرجاء بين علىّ وعثمان ومعاوية وكافة المسلمين ، الأمر الذى نتج عنه عداء شديد بين المرجئة والشيعة الغالية حتى بدوا على طرفى نقيض ، كما يصور لنا هذا قول أحد شعراء الشيعة الغلاة :

إذا المرجئ سرك أن تراه ... يموت بدائه من قبل موته
فجدد عنده ذكرى علىّ ... وصل على النبى وأهل بيته (٣)

وواضح أن الشيعة كانوا يغيظون المرجئة بذكر علىّ وآل بيته ، وإظهار التقديس

---

(١) ابن سعد جـ ٦ ص ١٩٢ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢٢ .
(٣) البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٤٩ .

لهم مما ينقض رأيهم فى التوقف عن تصويبه أو تخطئته ، وتأخيره إلى الدرجة الرابعة تاليا للنبي ولأبى بكر وعمر ، كما يبدو ذلك فى رد محارب بن دثار الذهلى وهو أحد أئمتهم على بعض من عاب عليه ذلك من الشيعة ، يقول :

يعيب عَلَىَّ أقوام سفاها ... بأن أرجو أبا حسن عليّا
وإرجائى أبا حسن صواب ... عن العمران برًّا أو شقيا
فإن قدمت قوما قال قوم ... أسأت وكنت كذابا رديّا
إذا أيقنت أن الله ربى ... وأرسل أحمدا حقا نبيا
وأن الرسل قد بعثوا بحق ... وأن الله كان لهم وليا
فليس عَلَىَّ فى الإرجاء بأس ... ولا لبس ولست أخاف شيا[1]

فالذين يعيبون عليه إرجاء على سفهاء لا يعلمون شيئا ، فإرجاؤه له وتأخيره عن أبى بكر وعمر ، والتوقف عن الحكم له أو عليه هو الصواب بينما لو عمد فقدم قوما على قوم كما يفعل غلاة الشيعة بتقديمهم عليًّا على من سواه لاتهم بالكذب والإساءة من قوم آخرين ، وما دام لا يعرف المخطئ من المصيب فليس له أن يقدم أحدا على أحد وما دام يؤمن بالله وبرسوله وبأن الرسل جميعا بعثوا بالحق وبنصر الله فليس عليه بأس ولا يخاف شيئا .

وقد رد منصور النمرى الشيعى على محارب بأبيات هجاء مقذعة مستنكرا عليه أن يرجئ عليًّا لأنه بإرجائه إياه إنما يرجئ نبيًّا أو كالنبي ، فقال :

يود محارب لو قد رآها ... وأبصرهم حواليها جثيّا
وإن لسانه من ناب أفعى ... وما أرجى أبا حسن عليّا
وإن عجوزه مصعت بكلب ... وكان دماء ساقيها جريّا
متى ترجى أبا حسن عليا ... فقد أرجيت يالكع نبيّا[2]

وقد تعرض المرجون لنبال الشيعة الغالية الذين ساءهم إرجاء على ، وتسويتهم بينه وبين عثمان ومعاوية والخوارج ، كما فى أبيات السيد الحميرى التى يقول فيها :

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ١٠ .
(٢) الأغانى جـ ٧ ص ١٠ — ١١

خليلىّ لا ترجيا واعلما بأن الهدى غير ما تزعمان
وإن عمى الشك بعد اليقين وضعف البصيرة بعد العيان
ضلال فلا تلججا فيهما فبئست لعمركما الخصلتان
أيرجى على إمام الهدى وعثمان ما أعند المرجيان
ويرجى ابن حرب وأشياعه وهوج الخوارج بالنهروان
يكون إمامهمُ فى المعاد خبيث الهوى مؤمن الشيصبان[1]

وهكذا ، لم ترض أفكار المرجئة الخوارج كما لم ترض غلاة الشيعة ، وهذا معنى ما ذهبنا إليه من أن ظهور هذه الفرقة لم يكن إلا نتيجة للتطرف الشديد لأفكار الغلاة من الشيعة والمتشددين من الخوارج .

وقد وقفت المرجئة بين هؤلاء وأولئك فى نظريتهم عن الخلافة فبينما ربط الخوارج بين الإيمان والعمل ورأوا أنهما وحدة لا تنفصم وأن مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار ورتبوا على هذا أن بنى أمية بوصفهم مرتكبى كبيرة ، كفار ، وأوجبوا قتالهم وخلعهم ، وذهب الشيعة إلى أن الإمام يعين من يخلفه لأن النبى أوصى لعلىّ ، وعلىّ لابنه فجاء معاوية واستحل ما ليس حقًّا له ، فهو لهذا مغتصب وضال ، فإن المرجئين فصلوا بين العقيدة الدينية والرأى السياسى فلم يتعرضوا للحكام المخالفين لهم فى الرأى ، ولم يدينوا بالثورة عليهم فكل من أعلن إسلامه مسلم لا يخرجه عن إيمانه معصية أو كبيرة ، ومع أنهم ينفرون من المعاصى فهم لا يقضون على العصاة بدخول الجنة أو النار ، وإنما يرجئون الحكم فى ذلك إلى الله يفعل بهم ما يشاء يوم القيامة .

ومن هنا كانت المرجئة فرقة ذات آراء سياسية ، وإن كانت سلبية ، فهم وإن لم يؤيدوا حكومة الأمويين فهم لا يعارضونها ، ولا يرون الثورة عليها ، وفى هذا اعتراف بشرعيتها[2] فهى إما على الحق وإما أنها اجتهدت فأخطأت وخطأ المجتهد لا ينقص من إيمانه .

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ١٥ .
(٢) العقيدة والشريعة ص ٧٦

وخطر المرجئة بهذ التصور يرجع إلى أنهم يشكلون كتلة المسلمين التى رضيت بحكم بنى أمية مخالفين الشيعة والخوارج ، ويتفقون إلى حد ما مع طائفة المحافظين من أهل السنة ، وإن كانوا قد ألانوا من شدة عقائد هؤلاء باعتقادهم أن المسلم لا يخلد فى النار .

والذى لا شك فيه أن المرجئة أخذت تفقد تدريجيًّا ما كانت تتصف به من سلبية تجاه الحكم الأموى ، وقد حدث هذا نتيجة لاتجاههم إلى البحث فى بعض الأمور اللاهوتية التى تتفق واتجاهاتهم السياسية كبحثهم فى الإيمان والكفر وما قد يجرهم إليه هذا المبحث من البحث فى حرية الإرادة فراجعوا أنفسهم واتهموا سلبية أفكارهم ، وكانت بيئتهم حقلا لبذور كثيرة متأثرة ببعض الآراء المسيحية والإغريقية الممتزجة بالفلسفة اليونانية عن طريق الاختلاط بأولئك الذين ظلوا زمنا طويلا تحت المؤثرات الهلينية .

وقد انقسمت فرقة المرجئة نتيجة لذلك إلى أربع طوائف متميزة هى مرجئة الخوارج ومرجئة القدرية ومرجئة الجبرية والمرجئة الخالصة[١] ويبدو أن المرجئة الخالصة هى التى استمرت فى سلوكها السلبى تجاه بنى أمية بينما مالت المرجئة الجبرية إلى تأييدهم تأييدا مطلقا والتماس الأعذار لهم ، وتبرير أعمالهم . كما حدث فى ثورة عمرو بن سعيد بن العاص على عبد الملك فى حمص ، فقد استقدمه ليصالحه ثم غدر به وقتله ، ونادى فى أصحابه « إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ الذى لا يمكن تجنبه »[٢] .

وليس شك فى أن مرجئة الجبرية كانت وراء عبد الملك وغيره من خلفاء بنى أمية ممن ذهبوا إلى أن حكمهم قدر مقدور من الله ، وأن سيادتهم مرسومة مقدما فى قضاء الله الأزلى .

وليس شك أيضا فى أن مرجئة القدرية كانت وراء كل الحركات الثورية المناهضة لخلفاء بنى أمية ، فقد ثار بعض أئمتهم على الدولة كسعيد بن جبير الذى

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢١ .

(٢) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٥ .

خرج على عبد الملك والحجاج وقتل ، وغيلان الدمشقى الذى طلب ومثل به فى عهد هشام بن عبد الملك وكذلك كان كثير منهم بين من ناصروا ابن الأشعث فى ثورته على الحجاج .

ومع ازدياد خطر المرجئة القدرية واتجاهها إلى المشاركة الإيجابية فى مناهضة الأمويين الجائرين حاول بعض خلفاء بنى أمية استمالتهم كما فعل عمر بن عبد العزيز حينما طلب أئمتهم فى الكوفة من أمثال عون بن عبد الله بن عتبة الهذلى وناظرهم فى آرائهم (١) .

وقد استطاع أن يقنع عونا ، وأن يجعله يبرأ من المرجئة ، وخرج من عنده يهاجم مبادئهم على هذا النحو :

وأول من نفارق غير شك ... نفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا مؤمن من أهل جور ... وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمن دمه حلال ... وقد حرمت دماء المسلمينا(٢)

وقد اشترك كثير من المرجئة فى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك ومن أبرز هؤلاء أبو رؤية المرجئ ، ولا نبالغ إذا قلنا إن المرجئة كانت صاحبة اليد الطولى فى إخراج يزيد ، وليس معنى أن بعض المرجئة الجبريين كانوا على رأس تلك الثورة أنها كانت ثورة للمرجئة الجبريين فإن هذا يتناقض مع ما زعمنا من سير هذه الفئة فى ركاب الأمويين وترويجها لسياستهم . ولكن الذى حدث أن هؤلاء الجبريين من المرجئة كانوا بحيث مكنتهم ظروف حياتهم فى خراسان واشتباك حياتهم بحياة أولئك المظلومين من الموالى بحيث ينتقضون على السياسة الجبرية التى شايعوا بها الأمويين .

وليس أدل على ذلك من أن شاعر المرجئة الجبرية ثابت قطنة كتب إلى يزيد ابن المهلب يحرضه على الخروج بقصيدة قال فيها :

---

(١) ابن سعد جـ ٦ ص ٢١٨ .
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٢٨ والأغانى جـ ٨ ص ٨٩ .

إن امرأ حدبت ربيعة حوله والحى من يمن وهاب كثودا
لضعيف ما ضمنت جوانح صدره إن لم يلف إلى الجنود جنودا

فلما قرأ يزيد الكتاب المشتمل على القصيدة قال : والله لأطيعنّه[١] وقد يبدو غريبا أن يميل شاعر من مرجئة الجبرية الذين عرفوا بمساندتهم للدولة والادعاء بأزلية سلطانها المقدور إلى مناصرة خارج عليها ولكن العجب يزول إذا ما تبينا دوافع أخرى كالعصبية اليمنية التى كانت تربط الشاعر بشخصية الثائر وبقبليته .

وقد بدا أثر المرجئة فى ثورة المهالبة واضحا إذ اتخذ يزيد الدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه وسيرة عمر بن عبد العزيز شعارا لثورته ، وحث الناس على الجهاد زاعما أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابا عند الله من جهاد الترك والديلم ، وقد تبعه عامة المسلمين فى البصرة وعلى رأسهم القراء كما تبعه عدد كبير من الموالى حتى تضخم جنده واستطاع أن يتغلب على البلاد التابعة للبصرة مثل الأهواز وفارس وكرمان ، ثم خرج إلى الكوفة بعد أن استولى على واسط ووقف عند العقر قريبا من بابل القديمة ، وهناك أرسل إليه الخليفة بجيش شامى كثيف بقيادة مسلمة بن عبد الملك فاضطر يزيد إلى عبور الفرات وعسكر قريبا من مسلمة وهم بمداهمته تحت جنح الليل ، ولكن أبا رؤبة زعيم المرجئة فى جند يزيد — وكان له تأثير على جمهور الجيش — أبى الغدر بجيش مسلمة بحجة أنهم قد دعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه فعليهم أن ينتظروا ردهم ، واضطر يزيد إلى الخضوع لرأى المرجئة على كره منه ، تماما كما خضع على بن أبى طالب لجنده يوم صفين[٢]

ولم يثبت أهل العراق ، وفرت تميم الكوفة ، وقتل يزيد ورثاه شاعر المرجئة ثابت قطنة ، ولم يكن شهد الوقعة ، بعدة قصائد استنكر فيها خذلانه وإسلامه ، وتوعد مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد ، وكانا على رأس جيش الشام بمثل قوله :

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٥٢ .
(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٣٠٨ .

أبى طول هذا الليل أن يتصرما ... وهاج لك الهمّ الفؤاد المتيما
أرقت ولم تأرق معى أم خالد ... وقد أرقت عيناى حولا مجرما
على هالك هدّ العشيرة فقدُه ... دعته المنايا فاستجاب وسلّما
على ملك يا صاح بالعقر جنّبت ... كتائبه واستورد الموت معلما
أصيب ولم أشهد ولوكنت شاهدا ... تسليت إن لم يجمع الحى مأتما
وفى غُير الأيام يا هند فاعلمى ... لطالب وتر نظرة أن تلوما
فعلىّ إن مالت بنى الريح ميله ... على ابن أبى ذبان أن يتندما
أمسلم أن تقدر عليك رماحنا ... نذقك بها قىء الأساود مسلما
وإن تلق للعباس فى الدهر عثرة ... نكافيه باليوم الذى كان قدما
قصاصا ولا نعدو الذى كان قدأتى ... إلينا وإن كان ابن مروان أظلما
ستعلم إن زلت بك النعل زلة ... وأظهر أقوام حياء مجمجما
من الظالم الجانى على أهل بيته ... إذا أحصرت أسباب أمر وأبهما[1]

وكان أبو رؤبة المرجئ بعد قتل يزيد قد تولى القيادة ، فقاتل أهل الشام ساعة من النهار ونجح أهل الشام فى أن ياسروا نحوا من ثلثمائة جاء الأمر بقتلهم منهم ثلاثون من تميم قبل أن يعفو مسلمة عن الباقين ، وأخرج معاوية بن يزيد بن المهلب اثنين وثلاثين أسيرا فقتلهم ثأرا ، وكان من بينهم عدى بن أرطأة الفزارى ، فقال ثابت قطنة يستنكر صنيع معاوية ، مبينا أنه خالف فى ذلك عن أمره فى قوله :

ما سرنى قتل الفزارى وابنه ... عدى ولا أحببت قتل ابن مسمع
ولكنها كانت معادى زلة ... وضعت بها أمرى على غير موضع[2]

واستنكر الفرزدق قتل هؤلاء النفر من تميم بيد معاوية بن يزيد المهلبى وبخاصة ابنى مسمع ، كما استنكر على أعدائه أن يبكوا قتلاهم من مثل المنتوف أحد موالى بكر بن وائل بقوله :

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٤ .
(٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٤٩ .

تبكى على المتوف بكر بن وائل ... وتهى عن ابنى مسمع من بكاهما
غلامين شبا فى الحروب وأدركا ... كرام المساعى قبل وصل لحاهما
ولو كان حيا مالك وابن مالك ... إذا أوقدوا نارين يعلو سناهما[1]

فرد عليه الجعد بن درهم بقوله :

تبكّى على المتوف فى نصر قومه ... ولسنا نبكى الشائدين أباهما
أراد فناء الحى بكر بن وائل ... فعز تميم لو أصيبت قناهما
فلا لقيا روحا من الله ساعة ... ولا رقأت عينا ستحى بكاهما
أ فى الغش نبكى إن بكينا عليهما ... وقد لقيا بالغش فينا رداهما[2]

ولا نكاد نمضى حتى عصر هشام بن عبد الملك حتى نجد للمرجئة الجبرية نشاطاً حربيًّا ملحوظا ضد الدولة إذ يتزعم أحد رءوسهم ثورة عنيفة فى خراسان زلزلت المنطقة تحت أقدام الأمويين بضع سنين ومهدت لنجاح بنى العباس هناك ، وقد قاد الحارث بن سريج هذه الثورة طلبا للعدل ، وانتصارا لمبادئ الإسلام الأساسية فى المساواة بين كافة المسلمين ودفاعا عن حقوق الموالى من الأعاجم الذين ظلمهم الأمويون باسم الإسلام ، وقد استطاع الحارث أن يمكن لنفسه بينهم حتى عدوه مخلّصا ومنقذا .

وقد سبق ظهور الحارث نبوءات وأحاديث غريبة تزعم أنه سيزيل عرش بنى أمية وتدعو الناس إلى تأييده ومناصرته ، ونلقى الحارث بن سريج فارسا فى جيش أشرس بن عبد الله السلمى والى خراسان لهشام بن عبد الملك سنة ١١٠ هـ يحارب جيش السغد وحلفاءهم من الترك والفرس عند « بيكند » بعد أن ضيق أشرس عليهم السبل فى الدخول إلى الإسلام باشتراط الختان والقيام بالفرائض وقراءة سورة من القرآن .

وكان السغد يرمون بذلك إلى التحرر من سلطان العرب ، وكانوا قد تمردوا

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٧١ .
(٢) الطبرى جـ ٨ ١٩٠ .

من قبل على النظم المالية المتعسفة ، فثاروا على أشرس وناصرهم جماعة من العرب ، وجماعة المرجئة فى خراسان ، ولكن أمكن صرف هؤلاء جميعا عن مناصرة قضية الموالى ففقدوا سندهم وأخضعوا .

وقد دفعتهم الهزيمة إلى استجاشة الترك والفرس لملاقاة جيش أشرس فى موقعة فاصلة ، وقد نهض أشرس لملاقاتهم من مرو ولكنهم تمركزوا فى بخارى وسدوا عليه طريق العبور على نهر بلخ ، وقطعوا عنه الماء حتى فقد سبعمائة من رجاله ماتوا عطشا ، وكاد جيشه يهلك عن آخره لولا تقدم الحارث بن سريج وحض الناس على الفداء وتقدم الصفوف فاتبعوه حتى نجح العرب فى كشف الترك ، وإزالتهم عن الماء ، وقد قتل فى هذا اليوم شاعر المرجئة وفارسها ثابت قطنة .

واستطاع العرب أن يشقوا طريقهم إلى بخارى فاتخذوها معسكرا ومنها حملوا على خوارزم ، ولكن فرقة من جيش العرب انقطعت فحوصرت من الترك واستماتت فى القتال حتى منحها الخاقان أمانا يمكنها من العودة إلى الدبوسية على ألا تلحق بالجيش العربى ، ويبدو أن الحارث بن سريج هو الذى حصل لهذه الفرقة على الأمان .

وقد أنجد هشام أشرس بجند بقيادة الجنيد بن عبد الرحمن المرى فأفلحا معا فى هزيمة الترك عند رزمان وفك الحصار عن سمرقند والعودة بالجيش إلى مرو .

وكان الحارث أول الأمر خارجيًّا ثم تحول إلى القول بالإرجاء والجبر وكان الجهم بن صفوان أحد رءوس المرجئة الجبرية وأشهر متكلميها من أعوانه ، وقد انتهت عند هذين الرجلين الأفكار السلبية لمرجئة الجبرية إلى أن أصبحت أفكاراً ثورية ملتزمة بالدفاع عن الأسس التى تقوم عليها الحكومة الثيوقراطية ، ومعارضة الاستبداد ونصر جانب الحق الذى قدسه الدين على جانب الظلم والعسف .

وقد بدأ الحارث ثورته معتمدا على السخط البالغ والتذمر الشديد اللذين أشعلهما استبداد الولاة القيسيين وسوء النظم المالية ، فاستند إلى الموالى وأثارهم واعدا إياهم بتحقيق مطالبهم فى إسقاط الجزية وإشراكهم فى أعطيات الجند ، وانضوى تحت رايته السوداء الدهاقين وأهل القرى ، وكثير من العرب الذين ناصروا

قضية الموالى من قبل وكثرتهم من أتباع أبى الصيداء ، و رفع الحارث شعار إنصاف الأعاجم المسلمين واتسع نطاق ثورته فلم تعد مقصورة على المرجئة إذ كان الحارث يقبل كل من يؤيده .

وقد نجح الحارث فى أن يخضع إقليم طخارستان و وصل إلى الفارياب ، وانضم إليه العرب الذين كانوا فيها من الأزد و بكر ، كما انضم إليه جبغوية نائب ملك الترك وناصره أمير الختل أيضا حتى بلغ جنده سبعين ألفا (١) .

ولم يبق فى يد بنى أمية فى تلك المنطقة غير مرو وأبرشهر ، ولكن الحارث تمكن من انتزاع مرو وشن غاراته من هناك على أبرشهر ، وكاد يخلو له وجه خراسان لولا وصول أسد بن عبد الله القسرى واليا على خراسان من قبل أخيه خالد والى العراق بدلا من عاصم بن عبد الله .

ونجح أسد فى استرداد كثير من المدن من يد الحارث واستطاع أن يقلص نفوذه فى خراسان حتى لاذ بطخارستان العليا لدى أصهاره فأوقع بهم أسد كما أوقع بحلفائه من الختل والسغد والبابية وأهل الشاش ، وحال الشتاء دون مطاردة الحارث ، وقد ولى نصر بن سيار خراسان فى هذه الفترة ، فعمل على إحراج الحارث بصلحه مع أهل الشاش واشتراطه عليهم إخراجه فقصد الفارياب .

وفى أخريات سنة ١٢٦ هـ عاد الحارث للظهور على المسرح من جديد ، وحاول نصر أن يحاسنه فدعاه إلى مرو ، ونمره بالتكريم ولكنه ظل متمسكا بمطالب المرجئة كما كان يفهمها من الناحية العملية من اتباع كتاب الله وسنة رسوله واستعمال أهل العدل والفضل .

ومن العراق أتت من الكميت شاعر الزيدية صيحة تحرض الحارث وصحبه على المضى قدما نحو إزالة ملك بنى أمية ، معتذرا عن نجدته ، بما يلقاه الشيعة من عسف بنى أمية وظلمهم محذرا لهم من أن يخدعهم أسد عن مطالبهم ، فى صورة منشور على هذه الصورة :

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٢٢٢ .

ألا أبلغ جماعة أهل مرو على ما كان من نأى وبعد
رسالة ناصح يهدى سلاما ويأمر فى الذى ركبوا بجد
وأبلغ حارثا عنا اعتذارا إليه بأن من قبلى بجهد
ولولا ذاك قد زارتك خيل من المصريين بالفرسان تردى
فلا تهنوا ولا ترضوا بخسف ولا يغرركم أسد بعهد
وكونوا كالبغايا إن خدعتم وإن أقررتم ضيما لوعد
وإلا فارفعوا الرايات سودا على أهل الضلالة والتعدى
وكيف وأنتم سبعون رجلا رماكم خالد بشبيه قرد[1]

وفى مرو شاعت دعوته بين التميميين ، فالتف من حوله ثلاثة آلاف رجل ، وبدأ خطره يعظم من جديد ، وأخذ رجاله يدعون له فى مساجد العراق وخراسان وعظم شأنه حتى ناظر نصر بن سيار وحكم بينهما مقاتل بن حيان وجهم بن صفوان فحكما باعتزال نصر على أن يصير الأمر شورى ، وأصبح الصراع بينهما صريحا ، فخرج الحارث من مرو وحاول الاستيلاء عليها ، وفشلت محاولته ، وأسر داعيته جهم بن صفوان وقتل .

وانضم إلى الحارث كثير من الأزد بزعامة الكرمانى عدو نصر ، وكان جهم يتولى للحارث كتابة المنشورات التى تتضمن سيرته ومبادئه لتقرأ على الناس فى المساجد ، وكان نصر بن سيار يرد على دعاء المرجئة بأبيات يسفه فيها دعواهم ، ويستنكر مبادئهم التى تنتهى إلى تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيه ، فيلعنهم ويقول بكفرهم ويدعو إلى قتالهم على هذا النحو :

فامنح جهادك من لم يرج آخرة وكن عدواً لقوم لا يصلونا
واقتل مواليهم منا وناصرهم حينا تكفرهم والعنهم حينا
والعائبين علينا ديننا وهم شر العباد إذا خابرتهم دينا
والقائلين سبيل الله بغيتنا لبعد ما نكبوا عما يقولونا

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٢٢٢ .

فاقتلهم غضبا لله منتصرا ... منهم به ودع المرتاب مفتونا
إرجاؤكم لزكم والشرك فى قرن ... فأنتم أهل إشراك ومرجونا
لا يبعد الله فى الأحداث غيركم ... إذ كان دينكم بالشرك مقرونا
ألقى به الله رعبا فى نحوركم ... والله يقضى لنا الحسنى ويعلينا[1]

وقد اضطر نصر إلى الجلاء عن مرو تحت ضغط الثوار ، ونزل بجنده فى نيسابور ، ولكن الخلاف ما لبث أن وقع بين أتباع الحارث اليمنيين ، وبين أتباع الكرمانى ، وتزعم الانشقاق بشر بن جرموز أحد كبار مساعدى الحارث ، فخرج على تحالف الحارث والكرمانى بدعوى أنه لم يخرج إلا طلبا للعدل ، وإن انضمام الكرمانى إليه يعنى أن القتال أصبح من أجل الغلبة والعصبية ، واعتزل بشر فى خمسة آلاف من المرجئة ، فاضطر الحارث إلى أن يتبعه ويتخلى عن نصرة الكرمانى ومن معه من الأزد ، ودار القتال فهزم أصحاب الحارث أمام الكرمانى وصحبه ، وأخرجوا من مرو ، وقتل الحارث ، وصلب جسده فى آخر رجب سنة ١٢٨ هـ .

وعلى الرغم من خطر حركة الحارث ونتائجها التى تعد تمهيدا لظهور العباسيين فإن صورتها فى الشعر شاحبة جداً ، ويبدو أن أصحاب الحارث قد اعتمدوا على النثر فى الدعوة إلى مبادئهم ، كما كان شأن جهم بن صفوان إذ كان يقص فى المواقع ويكتب منشورات الدعاء لمبادئ المرجئة وأحداثها بعامة لتقرأ على الناس فى المساجد ، كما كان يوجه المناظرات التى يجادل فيها المنكرين والمعارضين .

ولا يقتصر الأمر على حركة الحارث فحسب ، فإن صورة المرجئة وأحداثها بعامة غير كاملة ولا واضحة فى الشعر كما رأينا ، فلا نكاد نجد غير أبيات قليلة تسجل بعض تلك الأحداث الكثيرة التى حفل بها تاريخ الإرجاء فى عصر بنى أمية فضلا عن التعبير عن الآراء .

ونفس الأمر يصدق على نثرهم فإن صاحب الفهرست يذكر أن لغيلان

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٢٢٣ .

المرجئ سائل فى ألفى ورقة[١] وعلى الرغم من أنها تدور كلها فى المواعظ[٢] فإنها تحمل آراءه فى الإرجاء ومن المؤسف أنه ليس لدينا عن المرجئة إلا القليل أيضا من الأخبار ، وليس شك فى أن ذلك يرجع إلى تدمير العباسيين للمرجئة وآثارها ، لاتفاق آرائها مع آراء الأمويين ، ولأن هذه الفرقة أيضا قد تداخلت فى فرق أخرى ، وذابت فيها فلم يعد لها ثمة وجود مستقل محسوس .

وطبيعى إذن ألا يحمل إلينا الشعر فى هذه الظروف صورة صادقة لمبادئ المرجئة وأفكارها ولكننا نحاول أن نرسم صورة تقريبية لهذه الأفكار من واقع الأشعار القليلة التى وصلت إلينا .

والفكرة الأساسية عند المرجئة هى تحديد الإيمان والكفر ، والمؤمن والكافر ، وكان دافعهم إلى هذا أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم وغلاة الشيعة كذلك ورأوا الخوارج فى غلوهم يعدون كل كبيرة كفرا والشيعة فى غلوهم يعدون الاعتقاد فى الإمام ركنا من أركان الإيمان ، وقد فارق المرجئة آراء الفرقتين جميعا بفروعهما كما يقول أبو عاصم الليثى الذى كان خارجيًّا ثم أرجأ :

فارقت نجدة والذين تزرقوا ... وابن الزبير وشيعة الكذّاب
والصفْرَ الآذان الذين تخيروا ... دينا بلا ثقة ولا بكتاب[٣]

وقد رأى المرجئة خلافا لكل من الخوارج والشيعة أن الإيمان لا يخرج عن التصديق بالقلب واللسان ، لا عبرة بعد ذلك للقيام بالعبادات والفرائض إذ هى ليست من أصل الإيمان . وعلى هذا فهم لا يعتدون بالعمل ركنا من أركان الإيمان ، لأنه ينقص ويزيد والإيمان عندهم لا ينقص ولا يزيد ، فلا تضر إذن مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة فهم لا يكفرون أحدا من المسلمين ما دام يؤمن بألا إله إلا الله وبأن محمدا رسول الله مهما ارتكب من الذنوب والكبائر كما يقول شاعرهم ثابت قطنة :

---

(١) الفهرست ص ١٧١ .
(٢) عيون الأخبار ج ٢ ص ٣٤٥ .
(٣) تهذيب الكامل ج ١ ص ١٢٢

المسلمون على الإسلام كلهم والكافرون استووا فى دينهم قددا
وما أرى أن ذنبا بالغ أحدا م للناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا[١]

وقد نتج عن تعريفهم للإيمان على هذه الصورة أن خالفوا الخوارج فى شأن مرتكب الكبيرة الذى يخلدونه فى النار استنادا إلى قوله تعالى : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها » وإلى قوله تعالى: « ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها » .

وقد تأول المرجئة الآية الأولى بأن الذى يعصى الله ورسوله ويكون مؤمنا فإنه تعدى بعض حدود الله ، أما الذى يتعدى حدوده كلها فهو الكافر ، وهو المعنى فى الآية ، كما تأولوا الآية الثانية بأن المراد بها من يقتل مؤمنا لإيمانه ولا يقتل مؤمنا لإيمانه إلا كافر .

وعلى هذا كان الخوارج فى رأيهم مخطئين فى مقالتهم بتكفير مرتكب الكبيرة كما يقول شاعر المرجئة ثابت قطنة :

كل الخوارج مخطٍ فى مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا[٢]

وكان طبيعيا أن ينسحب هذا الحكم على الرجال الذين وضعهم كل الخوارج والشيعة موضع الاتهام ، وحكموا بتكفيرهم من مثل على وعثمان وغيرهما ، فهم مسلمون مهما كان الذنب المنسوب إليهم ، وأمرهم مرجأ إلى الله سبحانه متروك له يقضى فيه بما يشاء ، وقد عبر عن ذلك ثابت قطنة فى أبياته الشهيرة التى تقول :

نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا
... أما علىّ وعثمان فإنهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزى على وعثمان بسعيهما ولست أدرى بحق آية وردا
الله يعلم ما يحضران به وكل عبد سيلقى الله منفردا[٣]

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠ .
(٢) الأغانى جـ ١٣ ٥٠ .
(٤) الأغانى جـ ١٣ص ٥٠ .

وقد اتجه المرجئة نتيجة لبحثهم فى الإيمان إلى البحث فى حرية الإرادة والجبر ، فكانت بيئتهم هى الأرض التى نبتت فيها هذه البذور ، وظهر بين المرجئة أصناف مختلفة أصبحوا فيما بعد رءوسا لفرق أخرى قائمة بذاتها ، وأنتجت فيما أنتجت القدريين الأولين والجبريين الأولين ، وليس بين أيدينا من الشعر ما يمكن أن يوضح آراء مرجئة القدرية فى حرية الإرادة ، كما لا نعرف لهم شعراء بأعيانهم فيما عدا ذا الرمة .

أما مرجئة الجبرية فقد أشار شاعرهم ثابت قطنة إلى رأيهم الذى لا يرى للإنسان إرادة ما أمام إرادة الله الرشيدة ، وأنه لا يملك من أمر نفسه شيئا ، فلا يستطيع دفعا لما قضى الله به ، يقول ثابت :

وما قضى الله من أمر فليس له رد وما يقض من أمر يكن رشدا[1]

والمرجئة بعامة يعتقدون أن الله لا يخلف وعده ، ولكنه قد يخلف وعيده لأن الثواب فضل من الله لا بد أن يفى به ، وليس كذلك العقاب ، لأنه عدل ولله أن يعفو أو يخفف وقد أشار إلى هذا ثابت قطنة فى قوله :

من يتق الله فى الدنيا فإن له أجر التقىّ إذا وفّى الحساب غدا[2]

وهكذا يبدو شعر المرجئة قاصرا عن حمل مبادئهم والتعبير عن أفكارهم تعبيرا شاملا ودقيقا نظرا لقلة ما وصل إلينا منه ، وهذه الأشعار على قلتها تحمل خصائص فنية مميزة أهمها أنها تجول فى مجال العقل الخالص ، وتتوسل بالبرهنة والتدليل ولا تعتد بإثارة العاطفة والأحاسيس فى التعبير عن مبادئ العقيدة وأفكارها ، ونستطيع لهذا أن نعد هذه الأشعار القليلة وثيقة طريفة أودعت فيها الأصول العامة والخطوط العريضة والقواعد الأساسية لعقيدة الإرجاء .

وهى من هذا القبيل تشبه إلى حد كبير مقالة الهاشميات التى أودع فيها الكميت أصول عقيدة الزيدية وآراءها ، بل لا نغالى إذا قلنا إنها أكثر بعدا عن الشعر

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠ .
(٢) نفس المرجع .

المألوف من الهاشميات لشدة جنوحها نحو التقرير الفكرى المجرد وانعدام التصوير الفنى فيها تماما، ولهذا تميزت هذه الأشعار بأنها تقريرية تماما ، لا فسحة فيها للتعبير بالصور ولا لجوء فيها إلى الخيال ، وقد كان ذلك سببا فى أن الصياغة مالت تماما إلى النثرية بشكل ملحوظ لولا ما توافر لها من الإيقاع الموسيقى .

فهى أشعار من لون طريف ، وهى كما سبق القول عن الهاشميات غريبة على الذوق العربى الذى يعرف الشعر غناءوعاطفة وتصويرا أكثر مما يعرفه فكرا وتعقيلا . وهى ليست إلا ثمرة من ثمار العقل العربى الذى أمدته روافد فكرية متعددة ، فدعمته دعما .

٢

كانت بيئة الإرجاء حقلا نبتت فيه طائفة القدريين الأولين وطائفة الجبريين الأولين ، وقد عرف من بين المرجئة الذين قالوا بالقدر يونس الأسوارى ويقال إنه أول من تكلم بالقدر[١]، وعنه أخذ معبد الجهنى فى البصرة، وقتله عبد الملك بن مروان فى ذلك بعد أن عذبه الحجاج ونهى الحسن البصرى عن مجالسته[٢] كما أخذ عنه كذلك غيلان بن أبى غيلان المعروف بغيلان الدمشقى[٣] وقد ذكر الشهرستانى ، وابن النديم[٤] أنه كان مرجئا بينما ذكر غيرهما أنه كان قدريًّا[٥] وقد قتل غيلان فى القدر بعد أن ناظره الأوزاعى فأفتى بقتله فى عهد هشام بن عبد الملك ، ونسج على منوال هؤلاء فى القول بالقدر ، وإنكار

---

(١) لسان الميزان جـ ٦ ص ٣٣٥

(٢) أسد الغابة جـ ٤ ص ٣٩٠ .

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢٧ .

(٤) الفهرست ص ١٧١

(٥) لسان الميزان جـ ٤ ص ٤٢٤ ، المعارف ص ٢٤٤

إضافة الخير والشر إليه واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصرى وتلميذه عمرو ابن عبيد [١].

وقد اصطف أمام القدرية أصحاب مذهب الجبر يناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر ، فاتجه جهم بن صفوان وهو من رءوس المرجئة الجبرية إلى القول بأن الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل ، وأن الله قدر عليه أعمالا لابد أن تصدر عنه ، وقد خلقها الله فيه كما يخلق فى الجماد ، وتنسب إلى الإنسان مجازا ، وأن الثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر والتكليف جبر [٢] وقد أظهر جهم بدعته بترمذ فقتله عامل نصر بن سيار هناك سنة ١٢٠ هـ [٣].

وعلى قدر ما كانت الكوفة تموج بمناقشات المرجئة ومناظراتهم ، كانت البصرة تمور بالمحاولات الجدلية فى القدر والجبر ، وكان زعيم القائلين فيها بالقدر غير منازع الحسن البصرى ، ويروى أن عطاء بن سيار ، ومعبدا الجنى كانا يأتيانه فيقولان : إن هؤلاء الملوك ، يعنيان بنى أمية ، على قدر الله فيقول : كذب أعداء الله [٤].

وقد وجه الحسن البصرى إلى عبد الملك برسالة طريفة ردًّا على سؤاله إياه عما يشاع عنه من قوله بالقدر وقد تحمس الحسن فيها لمذهب القدر واحتج بما يسنده من القرآن الكريم والحديث الشريف [٥].

وزعم صاحب المنية والأمل أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه فى القدر فكتب إليه رسالة ضمنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله [٦].

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٣١ ، ٦٢ ، نقد العلم والعلماء ص ١٠٢ الفرق بين الفرق ص ١٠٩

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١١٤

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٤٠

(٤) المعارف ص ٢٢٥

(٥) مصورة الرسالة فى دار الكتب المصرية برقم ٥٢٢١ أدب .

(٦) المنية والأمل ص ١٢

ويبدو أن الحسن كان دائم الجدال فى هذه المسألة معنيًّا بإثارتها فى مجالسه ، فقد روى عن أيوب السختيانى أنه كان يقول : نازلت الحسن فى القدر غير مرة [١] .

وقد ظهر فى مجالس الحسن كثير من أفكار القدرية كفكرة العدل على الله وهى فكرة تتصل مباشرة بحرية الإرادة ، ومسئولية كل إنسان عن عمله ، وكان الحسن يؤمن بها كما آمن بحرية الإرادة والعمل [٢] .

وأيضاً ظهرت فى مجالسه مسألة مرتكب الكبيرة ، وذهب الحسن إلى أنه مؤمن فاسق بينما ذهب تلميذه واصل بن عطاء إلى أنه بين الإيمان والكفر فى منزلة بين المنزلتين [٣] وقد أثار ذلك جدالا عنيفا بين واصل وأصحابه من القدرية . ويروى أن الحسن كان يجمع بين واصل وتلميذ له آخر وهو عمرو بن عبيد ليتناظرا فى هذه المسألة ، وروى المرتضى فى أماليه إحدى مناظراتهم [٤] وقد استطاع واصل أن يقنع عمرو بن عبيد برأيه [٥] وبذلك فارقا معا مذهب الحسن وسمّيا ومن تبعهما بالمعتزلة .

وقد أدى تفاعل الأفكار المتناقضة واحتكاكها إلى ذوبان فرقة المرجئة التى احتوت فى شقيها القول بالجبر وبحرية الإرادة ، وكانت نتيجة هذا الذوبان ظهور فرقة جديدة هى فرقة المعتزلة التى انبثقت عن القدرية ، وظلت تعرف بهذا الاسم لموافقتها للقائلين بالقدر فى إثبات قدرة للإنسان توجب الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى وتنفى أن تكون الأفعال بقدر الله تعالى وقضائه ولانطلاقها أيضاً فى جزء من مقولتها مما زعمه الجهمية الجبريون من نفى أن يكون

---

(١) ابن سعد جـ ٧ ق ١ ١٢٢ .

(٢) أمالى المرتضى جـ ١ ص ١٠٦ .

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٦٤ .

(٤) أمالى المرتضى جـ ١ ص ١١٤

(٥) أمالى المرتضى جـ ١ ص ١٦٥ .

لله صفات غير ذاته وتأويل ما ورد منها فى القرآن على غير الظاهر ، ومن القول بخلق القرآن[١] .

وقد أصبحت هذه الأفكار التى آلت إلى المعتزلة عن فرقتى المرجئة من المبادئ الأساسية لمذهب الاعتزال ، ولهذا زعمنا أن بيئة المرجئة هى التى أثمرت الاعتزال ، وأن المرجئة القدريين والجبريين على السواء هم أساتذة المعتزلة فى القول بالقدر ونفى الصفات .

وقد ارتبطت نشأة الاعتزال ارتباطاً وثيقاً بمجلس الحسن البصرى وهو رأس القدرية وخصم لا يستهان به للقائلين بالجبر . وتذكر الروايات أنه كان أول من أطلق كلمة المعتزلة على تلميذه واصل بن عطاء وبعض أصحابه على أثر مناظرة فى مرتكب الكبيرة . وكان الخوارج يرونه كافراً بينما كان المرجون يرونه مؤمناً . ولكن الحسن ومن تابعوه من القدريين كانوا يرونه منافقاً فأظهر واصل ابن عطاء القول بأنه غير مؤمن وغير كافر وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين . وقد أثار هذا القول جدلا عنيفاً بين الحسن وتلاميذه ، ودفع الحسن عمرو بن عبيد لمجادلة واصل فأقنعه برأيه وبذلك فارقا معاً مذهب الحسن وسميا ومن اتبعهما باسم المعتزلة[٢] .

ولكن بعض الروايات تنسب إطلاق اسم المعتزلة إلى قتادة . كما أن بعضها ينسب حادثة الانفصال تلك إلى واصل ، وبعضها ينسبها إلى عمرو بن عبيد[٣] ولهذا فقد ضعّف بعض الدارسين أن تكون التسمية بسبب حادثة الانفصال هذه لتعلقها حينئذ بالعرض دون الجوهر ، وذهبوا إلى أن الأوجه أن تكون التسمية راجعة إلى معنى من المعانى وليست بسبب حركة جسمية[٤] .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١١٥

(٢) أمالى المرتضى جـ ١ ص ١٩

(٣) عيون الأخبار ص ٢٤٣ ، الأغلاق النفسية ص ٢٢٠ ، الأنساب ص ٥٣٦ شرح المقامات جـ ١ ص ٣٨٥

(٤) فجر الإسلام ص ٢٨٨ .

ومن هنا ظهرت تفسيرات عديدة لما يمكن أن يكون سبباً فى إطلاق هذه التسمية كأن يكون ذلك راجعاً إلى اعتزالهم لآراء الجماعة القائلة بأن مرتكب الكبيرة مؤمن ولآراء الخوارج التى تذهب إلى أنه كافر[١] أو أن واصلا وعمرا حينما طردا من مجلس الحسن وانضم إليهما من تابعهما على رأيهما من أصحابهما قال الناس يومئذ فيها : إنهما قد اعتزلا قول الأمة وسمى أتباعهما من يومئذ بالمعتزلة[٢] أو لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين فهو فى منزلة بين المنزلتين .

ومهما كان السبب فى إطلاق هذه التسمية عليهم ، فإنها لم تكن تسمية مستحدثة ، فقد أطلقت قبل ذلك على طائفة من المسلمين شاءت أن تقف موقف الحيدة من الصراع بين على ومعاوية لأنها وجدت فئتين متقاتلتين ، ولم تقتنع برأى أحدهما ، ولم ترد أن تدخل فى القتال بينهما لأنها لم تكن قد كونت لها رأياً أو لأنها رأت أن كليهما غير محق فيما ذهب إليه .

ومعنى هذا أن التسمية بالمعتزلة قد نشأت فى فلك سياسى وأنها ترجع إلى بدء التيارات الإسلامية التى بدأت مع تولى على الخلافة حينما وقفت طائفة من المسلمين على الحياد ، ولم يتخذوا موقفاً إيجابياً فى مشكلات السياسة القائمة فسموا بالمعتزلة ، وأصبح اسمهم اصطلاحاً سياسياً يعنى اتخاذ موقف الحياد بين على وخصومه[٣] .

وقد أطلق المؤخون كلمة الاعتزال على هؤلاء الذين لم يبايعوا علياً ، ولم يكونوا من أنصار عثمان ممن أورد أبو الفداء أسماءهم ، وعقب عليهم بقوله : إن هؤلاء سموا بالمعتزلة لاعتزالهم بيعة على[٤] .

وقد ذكر أبو الفرج أن والد الشاعر أيمن بن خريم كان ممن اعتزلوا حرب

---

(١) انظر لسان العرب ، تاج العروس فى مادة : عزل .
(٢) الفرق بين الفرق ص ٩٧–٩٨
(٣) Short Encyclofaedia of Islam pp. 421-422,
(٤) المختصر فى أخبار البشر ج ١ ص ١٧١

الجمل وصفين وما بعدهما من الأحداث فلم يحضرها[١] .

وأيضاً كان سعد بن أبى وقاص من الذين اعتزلوا الصراع بين على وأصحاب الجمل وبين على ومعاوية ، وقال : لا أقاتل حتى تأتونى بسيف يستطيع أن يعقل وينطق ويبصر ليخبرنى أن هذا أصاب وأن ذاك أخطأ ، ويذكر أبو الفرج أن أيمن بن خريم اعتزل النزاع بين عمرو بن سعيد وعبد الملك ، وشاركه فى الاعتزال رجل من قومه يقال له ابن كوز فقال أيمن فى ذلك أبياتاً فيها قوله :

فإنى تارك لهمـــا جميعـــــا ومعتزل كما اعتزل ابن كوز[٢]

وكان أيمن من المعتزلة الأولين الذين لا يرون الانزلاق إلى نصرة فئة على فئة بينما كان يسارع إلى نيل أموال العطاء متجنباً أى قتال فى أى صف كما فى قوله :

إن للفتنة ميطا عاجـــــلا فرويد الميط منها تعتـــدل
فإذا كان عطـــاء فانتهـــز وإذا كان قتـــال فاعـــتزل
إنما يوقدها فرسانهـــــــا حطب النار فدعها تشتعل[٣]

وقد رفض أن يشترك فى قتال ابن الزبير ، على الرغم من إغراء عبد الملك له بالمال ، وقال فى ذلك أبياتاً تعبر عن مذهبه فى اعتزال الفتنة منها :

ولست بقاتل رجلا يصلى على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلى إثمـــى معاذ الله من سفه وطيش
أأقتل مسلماً فى غير ذنب فليس بنافعى ما عشت عيشى[٤]

وجاءت كلمة المعتزلة والاعتزال دالة على الحيدة فى المواقف السياسية

---

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ٥ .
(٢) الأغانى جـ ٢١ ص ٦
(٣) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٥
(٤) ابن سعد جـ ٦ ص ٢٥

المشتملة على صراع بين طائفتين مختلفتين[١] ولهذا فقد بدا أن إطلاق هذه التسمية على مدرسة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد لم يكن إلا إحياء للاسم القديم الذى كان معروفاً وله صبغة خاصة مما يحول بيننا وبين أن نصدق أنه إنما أطلق لمناسبة انتقال واصل من سارية إلى سارية ، فليس شك إذن فى أن الاعتزال يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعانى والأفكار التى قال بها أولئك الذين سموا بالمعتزلة وبالظروف السياسية التى وجدت فيها هذه الأفكار ، وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن حركة الاعتزال بدأت فى نهاية القرن الأول انعكاساً أورد فعل للتطرف المذهبى للشيعة والخوارج من ناحية ثم للتراخى الذى وسم به موقف جماعة المرجئة من ناحية أخرى[٢].

وتجمع الروايات على أن محل الخلاف بين الحسن البصرى وواصل بن عطاء إنما كان حول مرتكب الكبيرة أكافر هو أم مؤمن ، وهى مسألة وإن كانت فى ظاهرها مسألة كلامية بحتة إلا أن فى أعماقها شيئاً سياسياً خطيراً .

فالمعتزلة الجدد بقولهم إن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً خالصاً وليس كافراً خالصاً وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين ، قد وقفوا بين الخوارج والمرجئة موقفاً وسطا واعتزلوا رأيهم جميعا ، وهم بهذا يمثلون الخلفاء الشرعيين لأولئك الذين سبقوهم بمائة عام تقريباً بالاعتزال السياسى للفريقين المتنازعين .

ويبدو الخطر السياسى لأفكار المعتزلة إذا ما طبق مبدؤهم فى مرتكب الكبيرة على الأعمال التى سبقت بين المسلمين من قبل ، والرجال الذين قاموا بها ، فإن مرتكب الكبيرة الذى يضعونه بين الكفر والإيمان إذا خرج من الدنيا على كبيرته من غير توبة فهو من أهل النار خالدا فيها[٣].

فهم يتفقون مع الخوارج فى تأييد عذاب العاصى حتى ليعدهم البعض من الخوارج كما فعل إسحق بن سويد القدرى فى قوله :

---

(١) راجع الطبرى جـ ٥ ص ١٧٦ ، ٢٠١ ، ٢٢٤ ، جـ ٧ ص ٧ .

(٢) Hamiliton, Or-Mohammedanism, p. 99.

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٦٥ .

برئت من الخوارج لست منهم من الغزّال فيهم وابن باب[١]

وهم بهذا أكثر جرأة من المرجئة السلبيين الذين قالوا بإيمانه ، وقد تبدت جرأة المعتزلة فى نقد الرجال والمواقف ، فلم يجوز واصل قبول شهادة على وطلحة والزبير على باقة بقل ، كما جوز أن يكون عثمان وعلىّ على الخطأ ووافقه على ذلك عمرو بن عبيد[٢] بل وافقه على ذلك أيضاً الشيعة الزيدية من أتباع تلميذه زيد بن على [٣].

وهكذا نستطيع أن نزعم أن هناك أوجه شبه بين المعتزلة الأول والمعتزلة المتأخرين وأن مذهب الاعتزال الكلامى قد سبقه اعتزال سياسى وأن كلا منهما قد انتحى منحى خالف به الطوائف المعاصرة المختلفة ، وإن أضاف المتأخرون بفضل ما أتيح لهم من الاحتكاك بالثقافة الأجنبية ، واستنادهم إلى العقل أبحاثاً لاهوتية بحتة فى صفات الله وفى القدر ولهذا يمكننا أن نرجع تسميتهم بالمعتزلة إلى اعتزالهم قول الأمة بانتحائهم منحى جديدا ساروا فيه مخالفين لغيرهم ، وإن كان اتجاههم ليس إلا نتيجة لذوبان الأفكار القدرية والجبرية التى عرفت قبل نشأتهم .

ولكنهم على الرغم من هذا يبرءون من تسمية البعض لهم بأسماء هذه الفرق فيدفعون تسميتهم بالقدرية بأنهم ينفون القدر بينما يثبته غيرهم والذين يثبتونه أولى بأن ينسبوا إليه ، وكذلك ينفون عن أنفسهم أن يسموا بالجهمية نتيجة لاتفاقهم معها فى القول بنفى صفات الله ، وقد برئ أحد رءوسهم من الجهمية بقوله :

ننفيهم عنا ولسنا منهم ولاهم منا ولا نرضاهم
إمامهم جهم وما لجهم وصحب عمرو ذى التقى والعلم[٤]

وإذا ما تأملنا طبيعة التكوين الفكرى للمعتزلة والمبادئ التى استغرقتهم

---

(١) الفرق بين الفرق ٩٩ ، البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣ . .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٦٥ ٦٦
(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٠
(٤) العقد جـ ١ ص ١١٠

لتبين لنا أنهم أصحاب فكر قومته ثقافة عقلية خالصة ترتكز على دعائم من الفلسفة والمنطق ويستهدف الدفاع عن عقيدة التوحيد بالدليل المنطقى الذى أضحى طابع العقل العربى فى هذا العصر الذى غمرته التيارات الفكرية والمذهبية وانتشرت فيه ألوان الثقافة والمعارف والآراء المختلفة ولم تكن طبيعتهم الفكرية ولا اتجاههم العقلى ليسمحان لهم بالإكثار من الشعر أو الافتتان فيه كما لم تكن طبيعة هدفهم إلى الدفاع عن عقيدة التوحيد بالدليل والبرهان لتسمح لهم بذلك فهذا مجال يختلف عن مجال الشعر وللشعر مجال خاص هو التعبير الفنى عن التجارب النفسية التى ينفعل بها الشاعر انفعالا خاصاً . وليس شك فى أن هذا هو السبب فى أننا لا نجد للمعتزلة شعراً كثيراً جيدا بخلاف النثر الذى امتلكوا نواصيه وارتفعوا فيه إلى قمة سامقة وقد كان متوقعاً أن يبلغ المعتزلة بالشعر المذهبى الذى وطأ أكنافه الكميت فى هاشمياته خطوات أبعد فى مجال العقل والفكر والمنطق ولكنه يبدو أنه لم يتح لهم الشاعر القمين بهذه المهمة فانصرفوا بكل ثقلهم إلى النثر حيث عدوا من أئمة البيان .

وما بين أيدينا من شعر المعتزلة فى العصر الأموى لا يتجاوز أن يكون مقطوعات وأبياتاً يسيرة فى كتب الأدب والتاريخ ، ويكفى للتدليل على قلة شعرهم واهتمامهم بالنثر من دونه أننا لا نجد حتى بعد هذا العصر الذى نعنى به ديوان شعر مكتملاً أو مجموعة من القصائد المكتملة التى يمكن أن تكون فى مجموعها صورة واضحة عن نمط شعرى معين نستطيع أن نستخلص منه خصائص مدرسة أو اتجاه أو مذهب [1].

وعلى الرغم من هذا ومن قصر الفترة التى عاشها الاعتزال فى العصر الأموى فإننا نجد هذا الشعر القليل يصطبغ بصبغة عقليتهم ويتضمن بصورة أو بأخرى بعض اتجاهاتهم الفكرية ومبادئهم الأساسية التى قام عليها مذهبهم ، كما أننا يمكننا أن نتعرف على بعض انطباعتهم المذهبية وسماتهم الخاصة التى أثرت دون ريب فى الشعر العربى من بعد تأثيرات هامة بما احتوت عليه من جدة

---

(١) أدب المعتزلة ص ٣٢٩ .

وطرافة نتيجة لاحتكاكها بالأفكار والثقافات المختلفة حتى يمكن القول بأن الأدب العربى قد تأثر بالهلينية عن طريق المعتزلة[١] وليس شك فى أن من ينظر فى شعر المعتزلة فيما بعد عصر بنى أمية يستطيع أن يرى مبادئهم وأفكارهم ماثلة فيه مثولا واضحاً كما أنه سيجد روح الاعتزال يشيع حتى فى الموضوعات التقليدية غير المذهبية ممثلا فى استخدام اصطلاحاتهم ومعانيهم وتعبيراتهم وطرائقهم فى التفكير، ولكننا وقد وضعنا نهاية العصر الأموى حداً تاريخياً لهذه الدراسة فإننا سنحاول من خلال أشعارهم القليلة فى هذه الفترة أن نبين ما يمكن أن يطبع شعرهم ويميزه عن غيره من مقومات وخصائص . ولعل أهم خصيصة تميز شعرهم هى تلك الخصيصة التى تميز فكرهم إطلاقاً وهى التعقيل فقد حولوا قضية الحسن والقبح العقليين التى ساقهم إليها البحث فى عدالة الله وتنزيهه إلى دفاع حار ومجيد عن سلطة العقل والاعتداد به مرجعاً أساسياً فى تحسين الأشياء وتقبيحها حتى صار لديهم الحجة الأولى فى الحكم على الأشياء ، واكتناه حقيقتها والتمييز بين خيرها وشرها حتى قبل أن يرد بذلك الشرع مخالفين أهل السنة فى تقديمهم العقل على السمع وقولهم بأن المعارف ضرورية وطبيعية يدركها العقل بالضرورة ، ومن ثم فقد ذهبوا إلى أن معرفة الله وإدراكه عن طريق النظر والاستدلال شىء ضرورى وواجب بالنسبة للعاقل المفكر المتمكن من النظر وقد كان العقل دائماً سبيلهم إلى التدليل على صحة عقيدتهم ومبادئهم ، كما كان طريقهم إلى الدفاع عنها ضد خصومها ، حتى إنهم ليدلون بتمجيدهم للعقل على خصومهم الحمقى الذين لا يقدرونه حق قدره ، فقد عبر واصل بن عطاء فيما نسب إليه من شعر عن ضرورة صون العقل عن مهاترات هؤلاء الجهال مبيناً أن العاقل يشقى معهم بعقله :

تحامق مع الحمقى إذا مالقيتهم ... ولا تلقهم بالعقل إن كنت ذاعقل
فإن الفتى ذا العقل يشقى بعقله ... كما كان قبل اليوم يشقى ذو والجهل[٢]

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ١١

(٢) معجم الأدباء جـ ١٩ ص ٢٤٧ .

وقد سلك شعر المعتزلة سبيل الاستدلال العقلى لتأييد عقيدة التوحيد والدفاع عنها أمام خصومها ، وهى أقوى مبادئهم الأصولية التى تجمعهم ، فالمعتزلة يعدون أنفسهم أعمق الطوائف الإسلامية إيماناً بوحدانية الله وأشدهم دفاعاً عن عقيدة التوحيد ، وأعنفهم تصدياً للرد على أصحاب الأديان والنحل المختلفة لرد كل ما يتعارض مع وحدانية الله وأزليته ، أو ما يتنافى مع أنه سبحانه وتعالى قادر بذاته وعالم بذاته وحى بذاته لا بقدرة وعلم وحياة .

وقد لجأ شعرهم فى سبيل ذلك إلى معالجة موضوعات جديدة لم يسبق للشعر العربى أن عالجها من قبل وهى موضوعات تمثل لنا روح المعتزلة وثقافاتهم ومنهجهم العقلى فى التدليل على وحدانية الله ، ومقدرتهم على الإقناع بالحجة الدامغة والبرهان القاطع ومهارتهم فى انتزاع الدليل بعد عرض المقدمات المسلمة المحسوسة .

ومن هذه الموضوعات ما عالجه صفوان الأنصارى فى قصيدة رائعة تعد من أروع ما أثر عن المعتزلة من شعر فقد استغل معرفته بعالم الأرض وطبيعته ومكنوناته وما يوجد فى باطن الأرض وعلى سطحها من مخلوقات عجيبة ومعادن غريبة وثمينة ليدل على وجود إله واحد متفرد بالألوهية والخالق وليرد على بشار بن برد الذى هاجم المعتزلة وعلى رأسهم واصل بن عطاء بعد أن تزندق وانحرف إلى القول بمذهب الديصانية المجوسى ، وذهب إلى أن العالم يقوم على أصلين هما النور والظلمة[١] وأن أولهما مصدر الخير وثانيهما مصدر الشر ، وقد جر ذلك بشاراً إلى أن يعذر إبليس فى زعمه أن النار خير من الطين [٢] وذكر مثل ذلك فى شعره فقال :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار[٣]

---

(١) الانتصار ص ٣٠ – ٣١

(٢) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ١٠

(٣) الأغانى ج ٣ ص ٢٤ ، البيان والتبين ج ١ ص ٩

وقد بلغ بشارا أن واصل بن عطاء ينكر عليه مذهبه وقوله فهجاه بقوله :

مالى أشايع غزّالا لـــه عنق كنقنق الدو إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكـــم أتكفرون رجالا أكفروا رجلا[١]

وكان بشار قبل أن يدين بالرجعة ويكفر الأئمة صديقاً لواصل بن عطاء وكان قد مدحه وذكر خطبته التى ارتجلها مجانباً الراء بقوله :

تكلف القول والأقوام قد حفلوا وحبّروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تغلى بديهتـــه كمرجل القين لمّا حفّ باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد قبل التفصح والإغراق فى الطلب[٢]

فلما دان بشار بالرجعة زعم أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له ، وعلى بن أبى طالب فقال :

وما شر الثلاثـــة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا[٣]

وقد رأى صفوان أن يسفه ما مال إليه بشار من القول بمذهب الديصانية وأن يناظره فى النار والطين أيهما أفضل وأجدر بالتقديم مناظرة عقلية تدحض ما زعمه من إظلام الأرض ، وإشراق النار وجدارتها لذلك بالتقديم ، فلجأ إلى الأرض يعدد فوائدها ومنافعها ويتحدث عن مكنوناتها ودفائنها حديث عالم خبير ، فإذا ما انتهى من كل هذا وملأ عقل سامعه وقلبه بدقة تلك المخلوقات قرر النتيجة التى استهدف الوصول إليها وهى أن الطين الذى عدد بعض مفاخره والذى خلقنا منه خير من النار ، وفى هذا إبطال لدعوى بشار ، فإذا ما كسب الجولة وأفحم مناظره انتهى إلى تقرير نتيجة أسمى ، وهى أن هذا الذى ذكره لهو أوضح برهان على وحدانية الله وتفرده ، يقول صفوان :

زعمت بأن النار أكرم عنصرا وفى الأرض تحيا بالحجارة والزند

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٢٤ ، البيان والتبيين جـ ١ ص ٩ .
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠ .
(٣) الأغانى جـ ٣ ص ٥٩ .

ويخلق فى أرحامها وأرومهـــا أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد
وفى القعر من لج البحار منافع من اللؤلؤ المكنون والعنبر الوردى
كذلك سر الأرض فى البحر كله وفى الغيضة الغناء والجبل الصلد
ولا بد من أرض لكل مطير وكل سبوح فى الغمائر من جد
كذاك وما ينساح فى الأرض ماشياً على بطنه مشى المجانب للقصد
ويسرى على جلد يقيم حزوزه تعمج ماء السيل فى صبب حرد[1]

فصفوان يبدأ استدلاله بضربة خاطفة جديرة بأن تنقض دعوى بشار ابتداء إذ يثبت زعمه بأن النار أكرم عنصرا ، ويتبع ذلك بقوله إن هذه النار التى يفضلها على الأرض لا يمكن لها أن تحيا وتستمر إلا فوق الأرض سواء أكانت فى صورتها المألوفة أم بعناصرها الأولية من الحجارة أو من العيدان التى يقدح بها شررها ، والله سبحانه وتعالى يخلق فى أرحام الأرض وفى أصول الأشجار أعاجيب لا يحصيها خط ولا عد ، ولا تقتصر الأرض على اليابسة فحسب وإنما تمتد تحت البحار ولجها حيث يكمن فى أحشائها اللؤلؤ المكنون .

وهكذا الأرض مليئة بالأسرار والمنافع فى البر والبحر والرياض والجبال ومهما طوف طائر فى الجو أو سبح سابح فى البحر فلا بدله من أن يسكن إلى الأرض ويقر فوقها ويأوى إليها ، لا فرق فى ذلك بين ما يسعى فوقها على بطنه وما يسرى على جلده مندفعاً بقوة السيل المنحدر . ويمضى صفوان فيعدد منافع الأرض ومكنوناتها :

وفى قلل الأجبال خلف مقطم زبرجد أملاك الورى ساعة الحشد
وفى الحرة الرجلاء تلقى معادنا لهن مغارات تبجس بالنقـــد
من الذهب الإبريز والفضة التى تروق وتصبى ذا القناعة والزهد
وكل فلز من نحاس وآنـــك ومن زئبق حى ونوشادر يسدى
وفيها زرانيخ ومكر ومرتـــك ومن قرقشيشا غير كاب ولامكدى

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦ .

وفيها ضروب القار والشب والنهى وأصناف كبريت مطاولة الوقد
ترى العرق منها فى المقاطع لائحا كما قدت الحسناء حاشية البرد
ومن إثمد جون وكلس وفضة ومن توتياء فى معادنه هندى
وفى كل أغوار البلاد معادن وفى ظاهر البيداء من مستوى نجد
وكل يواقيت الأنام وحليها من الأرض والأحجار فاخرة المجد[1]

فى الأرض نجد الزبرجد والمعادن المختلفة التى تنفجر بمعدنى الذهب والفضة المتداولين فى النقد ، واللذين يفتتان الزاهد ذا القناعة عن زهده وقناعته ويزريان بهما كما يحفل باطن الأرض بالنحاس الأبيض والزئبق والنوشادر وحجارة الزرنيخ والمغرة وغيرها من الأحجار النافعة والعناصر المفيدة ، كالقار والشبّ والزجاج وأصناف الكبريت والمعادن التى ترى عروقها تلوح ممتدة فى باطن الأرض وكذلك الكحل الأسود والجير وأخلاطه والتوتياء وغير ذلك من المعادن والجواهر واليواقيت والحلى والأحجار الكريمة المطمورة فى أنحاء الأرض ، ويمضى صفوان فيعدد مزايا الأرض ومعالمها وأماكنها المقدسة فى قوله :

وفيها مقام الخل والركن والصفا ومستلم الحجاج من جنة الخلد
وفى صخرة الخضر التى عند حوتها وفى الحجر المهمى لموسى على عمد
وفى الصخرة الصماء تصدع آية لأم فصيل ذى رغاء وذى وجد

ثم ينتهى إلى تقرير تلك النتيجة التى ساق كل هذه الأدلة للوصول إليها وهى أن الأرض التى هى الطين خير من النار وأكرم عنصرا ، وأن الأرض بهذه الصورة الرائعة من التدبير المحكم والنفع العظيم هى أوضح برهان على وحدانية الله وتفرده ، يقول :

مفاخر للطين الذى هو أصلنا ونحن بنوه غير شك ولا جحد
فذلك تدبير ونفع وحكمة وأوضح برهان على الواحد الفرد

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٧ .

وبعد أن انتهى صفوان من تقرير هذا المبدأ الأساسى من مبادئ الاعتزال تقريراً يقوم على الاستدلال العقلى المحض استدار إلى بشار هاجياً ومعنفاً ومسفها لآرائه ولعقيدته فى التناسخ ، ساخرا من تهجمه على الأئمة وتكفيرهم ، وهجائه للمعتزلة ، ولواصل بن عطاء الذى على الرغم من إحسانه إليه فقد نعته بأنه غزال قاصداً تحقير شأنه ، إذ كان يبيع الغزل فى سوق الغزالين ، وليس شك فى أنه دفاع حار عن واصل ينبع من إحساس عامر بحبه والإعجاب به ، فيقول :

أتجعل عمرا والنطاسى واصلا ... كأتباع ديصان وهم قمش المد
وتفخر بالميلاء والعلج عاصم ... وتضحك من جيد الرئيس أبى جعد
وتحكى لدى الأقوام شنعة رأيه ... لتصرف أهواء النفوس إلى الرد
وسميته الغزّال فى الشعر مطنباً ... ومولاك عند الظلم قصته مردى
فيا ابن حليف الطين واللؤم والعمى ... وأبعد خلق الله من طرق الرشد
أتهجو أبا بكر وتخلع بعـــده ... عليًّا وتعزو كل ذاك إلى برد
كأنك غضبان على الدين كله ... وطالب ذحل لا يبيت على حقد
رجعت إلى الأمصار من بعد واصل ... وكنت شريدا فى التهائم والنجد
أتجعل ليلى الناعطية نحلـــة ... وكل فريق فى التناسخ والرد
عليك بدعد والصروف وفرتنى ... وحاضنتى كسف وزاملتى هند
تواثب أقماراً وأنت مشوه ... وأقرب خلق الله من شبه القرد

فصفوان يستنكر على بشار هجومه على المعتزلة وتشنيعه على واصل ، ويفضح قصده فى أن يصرف الناس عن مذهبه إلى المذاهب الفاسدة ، ويرد عليه هجاءه واصلا ، وينعى عليه أن أباه كان طياناً وأن مولاه كان ملاحاً ويستنكر هجومه على الخلفاء وتكفيره الأئمة ويتهمه بأنه موتور من الدين كله وأنه جحد فضل واصل عليه إذ أعاده إل بلده بعد أن كان بعيداً شريداً فى الأرض ، ثم يندد بمذهبه فى التناسخ ساخراً منه سخرية مرة ولاذعة فى تساؤله عما إذا كان يزعم أن ليلى الناعطية — وهى امرأة من الغالية ذات عقل وتدبير — تحمل روح نحلة؟ ويهدى

إليه نصيحة ساخرة بأن يلزم هاته النسوةمن دعد إلى هند معرضاً بفسقه وعبثه على أن يترك هؤلاء الرجال الذين لا يستطيع أن يساميهم إذ بينه وبينهم مابين الأرض والقمر مشبهاً إياه فى قبحه ودمامته بالقرد .

وواضح أن هذا الجزء من القصيدة قد بدت فيه الروح الشاعرية التى افتقدت فى باقى القصيدة وذلك بفضل ما أفاضه الشاعر من عاطفة الحب للأئمة والخلفاء ولرجال مذهبه ولعقيدته ، ومن عاطفة البغض الشديد الذى تبدى فى صورة ساخرة من بشار الذى يزرى على عقيدته ويشنع على رجالها . وهو أمر خلت منه الأجزاء الأولى من القصيدة إذ كانت كلها حجاجا عقليًا صرفاً واستدلالا تقود فيه المقدمات المحسوسة والملموسة إلى النتائج التى استهدف الشاعر الوصول إليها .

والقصيدة بتمامها قصيدة مذهبية ممثلة لروح المعتزلة وسلوكهم فى الرد على أصحاب الديانات الباطلة والنحل الفاسدة ، والمعتزلة فى كل هذا يعتمدون على الأدلة العقلية والبراهين المادية ، ويستخدمون من الموضوعات ما تساعدهم عليه ثقافاتهم الواسعة وإلمامهم بعجائب الخلق .

وهو اتجاه جديد فى الشعر العربى لم يعرف به غير المعتزلة الذين ظلوا يعالجون أمثال هذه الموضوعات فيما بعد ، كما نرى عند بشر بن المعتمر[1] فى تصديه للتدليل على وحدانية الله تعالى وقدرته وتفرده بالخلق والإبداع من خلال تصوير الحيوان والوحش والطير وصفاتها وأحوالها واتخاذها براهين ساطعة على قدرته وتنزيهه عن الشرك وأحكامه لصنعه وإبداعه لخلقه ، وهى أمور تعد قوام عقيدة التوحيد التى هى أهم الأصول التى تقوم عليها عقيدة الاعتزال .

وقد صور شعر المعتزلة إيمانهم بأصل آخر من أصول عقيدتهم وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد عدوه أصلا من أصولهم وإن لم ينفردوا به دون عامة المسلمين ، إذ كلهم مطالب به إذعانا لقوله تعالى :« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

---

(١) انظر الحيوان ج ٦ ص ٢٨٤ .

ولكن المعتزلة لا يتساهلون فى هذا الأمر كما قد يفعل غيرهم من عامة المسلمين على تفاوت فى مداه . إذ يجمعون فيما عدا ابن كيسان الأصم على ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند القدرة والإمكان بالسيف واليد واللسان[1] .

وفى الحقيقة أن المعتزلة لم يقصروا فى هذا الأمر ، وإنما تميزوا بالاشتداد فيه ، والاجتهاد فى القيام به حتى صار لهم فى كل مكان دعاة أشداء لا يفل عزمهم طاغية أو جبار ولا يثنى همتهم كيد أو ائتمار . ولا يعبأون بقيظ الصيف ولا بصقيع الشتاء ولا يأبهون لبعد الشقة عن الأوطان ولا يبخلون بالجهد والمشقة ومعاناة الأخطار وكد السفر فى سبيل الدفاع عن الدين فى تفان وإخلاص نادرين حتى نصرهم الله على أعدائهم وأظهرهم عليهم فصاروا أوتاد دين الله فى كل مكان من الأرض وأهل الفتيا وأرباب الجدل وفرسان البلاغة وأئمة البيان الذين لا يشق لهم غبار ولا يدانيهم من خطباء العرب سحبان ولا غير سحبان ولا أحد من فصحاء بنى عامر ولا حتى النخار العذرى أو دغفل السدوسى ولا القالة الأعلون من رهط مكحل . ومن عجب أن يأتى بشار فيلقب واصلا بالغزال فكيف ذلك وهو واحد عصره وكهف اليتامى وملجأ المعوزين وليس لهم غيره ، فمن غير واصل ورفاقه من رجال المعتزلة يستطيع أن يتصدى للخوارج وللرافضة وللمرجئة وللمتجبرين الضالين عن جادة الصواب ، ومن للأمر بالمعروف ولإنكار المنكر وحماية دين الله من أعدائه الكافرين غير هؤلاء الرجال الذين يصيبون فصل القول فى كل منطق والذين تعرفهم من رزانتهم ووقارهم فى مجالسهم كأنما على رءوسهم الطير ، تعرفهم بسيماهم وفى سعيهم إلى الحج رجالا وعلى كل ضامر يأتون من كل فج عميق ، كما تعرفهم من طول ركوعهم حتى ليقضى الرجل منهم ليلة فى ركعة واحدة وتعرفهم أيضاً من صدقهم ، وبعدهم عن النفاق ومن أنهم لا يقولون ما لا يفعلون ومن قص أهدابهم وإحفاء شوار بهم ومن عمائمهم المكورة فوق رءوس اشتعل شيبها حتى لتكاد تضىء ومن شعيرات بين الشفة السفلى والذقن مصلومة عن اللحى ومن قمصانهم الرحيبة . فهذه

---

(١) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣١١ .

علامات تحيط بوصفهم وسيماهم رجالا دعاة للخير والمعروف قساة على الشر والنكر كما تصور ذلك أبيات شاعرهم صفوان الأنصارى التى تقول :

له خلف شعب الصين فى كل ثغرة ... إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر
إذا قال مرّوا فى الشتاء تطاوعوا ... وإن كان صيفاً لم يخف شهرناجر
بهجرة أوطان وبذل وكلفة ... وشدة أخطار وكد المسافر
فأنجح مسعاهم وأثقب زندهم ... وأورى بفلج للمخاصم قاهر
وأوتاد أرض الله فى كل باقع ... وموضع فتياها وعلم التشاجر
وما كان سحبان يشق غبارهم ... ولا الشدق من حيّ هلال بن عامر
ولا الناطق النحّار والشيخ دغفل ... إذا وصلوا إيمانهم بالمخاصر
ولا القالة الأعلون رهط مكحّل ... إذا نطقوا فى الصلح بين العشائر
بجمع من الجفين راض وساخط ... وقد زحفت براؤهم للمحاضر
تلقب بالغزّال واحد عصره ... فمن لليتامى والقبيل المكاثر
فمن لحرورىّ وآخر رافض ... وآخر مرجئ وآخر حائر
وأمر بمعروف وإنكار منكر ... وتحصين دين الله من كل كافر
يصيبون فصل القول فى كل منطق ... كما طبقت فى العظم مدية جازر
تراهم كأن الطير فوق رءوسهم ... على همة معروفة فى المعاشر
وسيماهم معروفة فى وجوههم ... وفى المشى حجاجا وفوق الأباعر
وفى ركعة تأتى على الليل كله ... وظاهر قول فى مثال الضمائر
وفى قص أهداب وإحفاء شارب ... وكور على شيب يضىء لناظر
وعنقفة مصلومة ولنعلـــه ... قبالان فى ردن رحيب الخواطر
فتلك علامات تحيط بوصفهم ... وليس جهول القوم فى جرم خابر (١)

وواضح أن وراء الأبيات عاطفة مشبوبة وإحساسا صادقا بالحب للمعتزلة والإيمان بعقيدتهم والولاء المخلص لمذهبهم ، ويتجلى ذلك فى إشادته الحارة بتمسكهم

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤ ، ١٥ :

بدينهم وجهادهم فى سبيله وتفانيهم فى الذود عنه والتضحية بهجرة الأوطان وبذل النفس والنفيس والاستهانة بالخطر والجهد فى سبيل إعلاء كلمة الدين ورفع رايته .

ولا ريب فى أن هذه العاطفة قد طبعت الأبيات بطابع الصدق . فلا تزيد ولا مبالغة وإنما هى صورة صادقة لما كان عليه رفاقه من المعتزلة وما كانوا يبذلون من جهد مخلص للدفاع عن دينهم وما كانوا يتميزون به من قدرات بلاغية فائقة كانت لهم خير معين على أداء رسالتهم ، وهى أمور تحدثنا عنها مصادر التاريخ ، ولكن عاطفة الشاعر الصادقة وهبت هذه الحقائق النبض الذى أصبحت بفضله عملاً فنيًّا يمكن أن يوصف بالجمال .

وقد أشاد غير شاعر بجهاد المعتزلة فى مجابهة المخالفين ، ومجادلة الملحدين ونوهوا أكثر مانوهواه بواصل بن عطاء وما اشتهر به من بلاغة وعارضة قوية واقتدار على الكلام وقدرة فائقة على تصريف وجوه القول على الرغم من لثغة قبيحة كانت فى لسانه تجعله يتحرج من النطق بحرف الراء فكان يتجنبه دون أن يتردد فى كلامه . وقد أشاد شعر المعتزلة بنضاله وتحمله الانتقال من مكان إلى مكان سعياً فى سبيل الدفاع عن العقيدة من مثل قول صفوان الأنصارى :

ملقن ملهم فيما يحاولـــه جمّ خواطره جوّابّ آفـــاق[1]

وقد تغنى الشعراء ببلاغته وسبقه الخطباء المصاقع الذين خطبوا قبله لدى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق وهم خالد بن صفوان وشبيبٌ بن شبّة والفضل بن عيسى فقال بشار :

أبا حذيفة قد أوتيت معجبـــة من خطبة بدهت من غير تقدير
وإن قولا يروق الخالدين معـــاً لمسكت مخرس عن كل تحبير[2]

وقال صفوان الأنصارى مفتخراً بمهارته وإسقاطه الراء وظهوره على من سبقه من الخطباء :

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٩/٢٤٩ والبيان والتبيين جـ ١ ص ١٢ .
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤

فسائل بعبد الله فى يوم حفلة وذاك مقام لا يشاهده وغـــد
أقام شبيبا وابن صفوان قبلـــه يقول خطيب لا يجانبه القصد
وقال ابن عيسى ثم قفّاه واصل فأبدع قولا ماله فى الورى ند
فما نقصته الراء إذ كان قادراً على تركها واللفظ مطرد سرد
ففضّل عبد الله خطبة واصل وضوعف فى قسم الصلات له الشكر
فأقنع كل القوم شكر حبائهم وقلل ذاك الضعف فى عينه الزهد[١]

وكذلك أشاد أبو الطروق الضبى المعتزلى بواصل الخطبة واجتنابه الراء على كثرة ترددها فى الكلام فقال :

عليم بإبدال الحروف وقامع لكل خطيب يغلب الحق باطله[٢]

وقال آخر مشيداً بنفس المقدرة :

ويجعل البر قمحاً فى تصرفـــه وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يطق مطرا والقول يعجلـــه فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر[٣]

وفى الاعتداد به والتغنى بصفاته وشخصيته يقول أسباط بن واصل الشيبانى :

وأشهد أن الله سماك واصـــلا وأنك ميمون النقيبـــة والشيم[٤]

وكما أشاد شعر المعتزلة ببلاغة واصل واقتداره وجهاده أشاد بزهده وانصرافه عن متاع الدنيا ولذائذها إلى العبادة والدعوة إلى طريق الله لا تخدعه مفاتن الحياة ولا يبهره بريق المال وفى ذلك يقول صفوان الأنصارى :

ولا مس دينارا ولا مس درهماً ولا عرف الثوب الذى هوقاطعه[٥]

وكذلك كانت صورة صاحبه ورفيق جهاده عمرو بن عبيد الذى وصفه أبو جعفر المنصور بقوله :

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٩ .
(٢) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٦٠ والبيان والتبيين جـ ١ ص ٩ .
(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٢ .
(٤) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٨ .
(٥) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٥ .

كلكم يمشى رويد كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد[١]

وقد كان أبو جعفر يبالغ فى إجلال عمرو وتعظيمه حتى لقد حزن عليه حين وفاته حزناً شديداً وقال فى رثائه أبياتاً عدّ بها الخليفة الوحيد الذى رثى واحدا من رعيته[٢] وفيها يقول :

صلى الإله عليك من متوسد قبرا مررت به على مرّان
قبراً تضمن مؤمناً متخشعاً عبد الإله ودان بالقرآن
وإذا الرجال تنازعوا فى شبهة نصل الحديث بحجة وبيان
ولو أن هذا الدهر أبقى صالحا أبقى لنا عمراً أبا عثمان[٣]

وعلى هذه الصورة أشاد شعر المعتزلة برجال الاعتزال وبتقواهم وزهدهم وحكمتهم وبلاغتهم واقتدارهم على الخطابة والجدل ومحاجة أهل النحل والبدع وتسخير هذه المهارات فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو أحد المبادئ الأصولية فى عقيدة الاعتزال .

وليس شك فى أن الدارس لشعر المعتزلة بعامة يشعر بغير قليل من الأسى لقلة شعرهم وليس لذلك من سبب إلا أنهم وجدوا النثر أفسح مجالا للتعبير عن ثقافتهم وأطوع استجابة لأن يحمل خصائص مذهبهم لما تتسم به ثقافاتهم وآراؤهم من سمات عقلية محضة كان النثر دائماً أكثر توفيقاً فى التعبير عنها ، وقد بلغ المعتزلة فى التعبير به أقصى درجات الدقة والروعة والجمال ، ودفعوا إليه بطاقة فكرية وأدبية هائلة استطاعوا بها أن يطوره وأن يفتحوا أمامه الطريق إلى آفاق جديدة رحيبة، وأن يطوعوه للتعبير عن مضامين مختلفة كما كان لهم فضل السبق فى تناول مشكلات الألفاظ وصفاتها ومواقعها من الجملة وعلاقاتها بالمعانى ومناسبتها لأحوال السامعين وأقدارهم ، وما إلى ذلك من الأمور التى تعد

(١) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٣١ .
(٢) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٣٢ ، والمنية والأمل ص ٢٤ .
(٣) نفس المرجع .

الدعائم الأولى لعلم البلاغة العربى .

فالنثر إذن كان أكثر ملاءمة للمعتزلة من الشعر فى التعبير عن معتقداتهم وثقافتهم العقلية الخالصة ، كما كان أكثر اتفاقاً ومهمتهم وطبيعة تكوينهم الفكرى إذ لم يكونوا معنيين بالتعبير عن تجاربهم النفسية والشعورية شأن الخوارج ، كما لم يكونوا مهتمين بالدفاع عن عقيدة تقوم على العاطفة المجردة شأن الشيعة وإنما كان جل نشاطهم وعنايتهم موجها إلى الدفاع والتدليل على عقيدة تستند إلى الفكر الخالص وتحتكم إلى العقل وحده وتتوسل إلى ذلك بالمناقشة والجدل والنظر فى الأدلة واستخدام الأقيسة المنطقية والبراهين العقلية ، ولهذا كان النثر بطواعيته ويسره وتخففه من القيود الفنية التى تحكم الشعر أنسب القوالب الأدبية لطبيعة الهدف الذى يرمون إليه وهو تقرير عقائدهم والدفاع عن مذهبهم ولهذا كان لجوءهم إلى الشعر قليلا ونادرا ، ولأن الفترة التى شهدت دعوتهم فى عصر بنى أمية كانت قصيرة جداً كان شعرهم أكثر قلة وندرة ، إذا ما قورن بشعرهم فى العصور اللاحقة على قلته ، ونستطيع على الرغم من ذلك أن نلاحظ من خلال ما بأيدينا من شعرهم فى عصر بنى أمية خصائص معينة تطبع هذا الشعر بطابع خاص .

فهو شعر يذهب برمته فى تقرير العقيدة والدفاع عنها ويتوسل إلى ذلك من حيث موضوعه بوسيلتين ، أولاهما معالجة الموضوعات التقليدية المألوفة من مدح وفخر ورثاء وهجاء . وثانيهما معالجة موضوعات جديدة لم يطرقها الشعر العربى من قبل ، ولكننا نلمح فى معالجته للموضوعات التقليدية تأثيرات مذهبية واضحة ، فعناصر المديح والفخر والرثاء فى شعرهم مقتبسة من صفاتهم التى غلبت عليهم كالبلاغة واللسن والقدرة على الارتجال وقوة البديهة والاقتدار على التصرف والتفانى فى الدعوة لدين الله وتوحيده والمهارة فى الفتيا والمناقشة والجدل والاعتدال بالعقل والتصدى للضالين من أصحاب النحل الفاسدة والبدع المنكرة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإخلاص فى التعبد والتهجد والزهد فى عرض الدنيا والبعد عن النفاق والمراءاة . والتحلى بالوقار والرزانة وجلال السمت والهيئة

وكذلك يتوسل هجاؤهم لخصومهم بقلب هذه العناصر فيرمونهم غالباً بالجهل والضلال والحيرة والزيغ والمعصية والكفر .

إلا أنهم كثيراً ما يلجأون إلى العناصر التقليدية فيرمونهم بصفات اللؤم والخسة والدناءة ويلمزونهم لمزاً جارحاً كما فعل صفوان ببشار بن برد إذ عيره بالعمى وشبّهه بالقرد، وتهكم بإخوته تهكماً مرًّا ، كأن يخاطب أم بشار بأنها ولدت جرذا أعمى وضبعاً أعرج وأرنباً قصير اليدين ، وأن الثلاثة الأخوة من أم واحدة وآباء مختلفين فلؤمهم لؤم خئولة إذن :

ولدْت خلدا وذيخا فى تشتمه وبعده خزرا يشتد فى العضد
ثلاثة من ثلاث فرقوا فرقا فاعرف بذلك عرق الخال من ولد[1]

وطبيعى أن يصدر شعرهم فى هذه الموضوعات جميعاً عن عاطفة حارة نابعة من صدق عقيدتهم وولائهم لها سواء أكان ذلك فى مديح رجالهم أورثائهم أو فى الفخر بهم والإشادة بمناقبهم أم فى كراهية خصوم عقيدتهم وهجوهم .

أما فى موضوعات شعرهم الجديدة فكانوا أوثق اتصالا بمقالتهم المذهبية فهى موضوعات عقائدية خالصة تقوم على تقرير بعض المبادئ التى تدل دلالة قريبة وواضحة على طابع فكرى ومذهبى خاص . وتعالج بطريقة عقلية محضة من حيث سوق الأفكار الجزئية التى يتكون منها المضمون الشعرى العام فى إطار فكرة عقلية واحدة ، ومن حيث استخدام النظر العقلى وأدواته للوصول إلى النتيجة المنطقية التى ترمى إليها تلك الأفكار الجزئية وتقريرها حتى يمكننا الزعم بأن المعتزلة قد تأثروا فى شعرهم القليل الذى بين أيدينا بما تمرسوا به من إدمان النظر العقلى واستخدام المنهج العقلى للاستدلال .

وينبغى أن نشير أيضاً إلى أن المعتزلة لم يخلعوا على الشعر قيما شكلية جديدة فى إطاره كتلك القيم الجديدة التى أضافوها إلى المضمون الشعرى إذ كانت كل عنايتهم مسددة إلى النثر الذى كان مطيتهم الذلول وكان لهم فى تطويره وإبداع أشكاله وتقنين قواعده باع طويل وأصيل .

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٨ .